الفصل السادس

مصادر الحضارة الإسلامية

أولاً: مصادر الحضارة الإسلامية (*):

١. **القرآن الكريم:** هو المصدر الأول لدراسة النظم الإسلامية والحضارة الإسلامية؛ فالقرآن الكريم هو التنزيل المحكم الذي انتظمت فيه القوانين وقدرت فيه القواعد التي انضبط بها المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية جميعاً، وفق تلك القوانين والقواعد سير المسلمون حضارتهم وفي إطارها قامت وتطورت نظمهم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.

قال تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (٢).

وفيه وجد المسلمون كل ما يحتاجونه في تنظيم جوانب حياتهم؛ فالإسلام يحترم عقل الإنسان ويكرم الجانب الروحي فيه، كما يهتم بجوانب الحياة البشرية ويسمو بمبادئها تأكيداً لنص الآية الكريمة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾ (٣).

لقد هيأ الله للعقلية الإسلامية المناخ الحر للتفكير والخلق والإبداع، ومن هنا كان علماء المسلمين عربهم وأعجمهم أسودهم وأبيضهم يدعون فيما أنتجوا من فكر وأدب وسياسة واجتماع واقتصاد وفلسفة وأخلاق وفنون وفقه وأصول.

والإسلام يقصد للقوانين التي تضبط سلوك الجماعة ووقف الحرب سواء ويضمن العدالة لكل من يحيا في ظل هذا الدين مسلماً كان أو ذمياً كما

(*) انظر: كتاب الثقافة الإسلامية، دولة الكويت، ١٩٩٨م، ص٦٧-١١٠.

(١) سورة البقرة: الآيات ١-٤.

(٢) سورة الإنعام: الآية ٣٨.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

ينظم القرآن الكريم أصول المعاملات وآدابها ليظل دائماً النبع الذي يستمد منه المسلمون أساليب حياتهم وأصول نظمهم وحضاراتهم.

والإسلام كما حددت أصوله وأسسه وقواعده في القرآن الكريم، وكما ظهر تطبيقاً في سنة النبي ﷺ وصحابته والتابعين دين ودولة بلغ الرسول ﷺ الرسالة كما أوحى إليه لم يكتم منها شيئاً، وعلى هديها أقام المسلمون دولة الإسلام في المدينة، ومن القرآن الكريم انبثقت كل الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التي عرفتها دولة الإسلام الشابة في المدينة المنورة، فيها ولدت وترعرعت وتطورت وبذرت بذور الحضارة الإسلامية الأولى ثم عاشت على مر العصور والأجيال تشع نور الحضارة الإسلامية في كافة الآفاق.

وطبق المسلمون نظريات القرآن الكريم في الحكم والسياسية، كما طبقوها فيما يتعلق بالإدارة وتنظيمها، وانتظمت هذه الأسس وتلك القوانين والنظريات لينتقل التطبيق الإسلامي إلى خارج شبة الجزيرة العربية لتتأكد بذلك صلاحية تلك النظم والقوانين لكل زمان ومكان.

وتنفرد الحضارة الإسلامية بين كل الحضارات باستيفاء نظمها وقوانيها من القرآن الكريم، الكتاب السماوي الأوحد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي سيظل دائماً المنبع الذي تنهل منه الحضارة الإسلامية حيويتها، وتجدد بالعودة إليه شبابها وقوتها كلما أحست بحاجة أو عنت لها قضية أو مسألة من قضايا ومسائل الدين والدنيا، وفي هذا يقول الرضي أن مرجع الناس في أمر دينهم ودنياهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن اشتبه عليهم أمر من الأمور رجعوا إلى الخلفاء وفقهاء الصحابة، واستخاروا الله واستظهروا باجتهادهم رأياً وعملوا به، وقد كانوا لا يكتبون أقوال النبي ﷺ وفتاوى الصحابة؛ خشية أن يجرهم الاعتماد على الكتب وإهمال حفظ القرآن الكريم والسنة، ولأن الكتاب عرضة للضياع والتصحيف والتحريف، ولما تعددت المذاهب وكثرة الأقوال والفتاوى والرجوع فيها إلى الرجال والرؤساء،

ومات أكثر الصحابة خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم ويتركوا سنة رسول الله فدونوا الحديث[1]، القرآن الكريم على هذا هو الأصل والمصدر تشرحه السنة النبوية الشريفة، وتوضح ما يصعب على المسلمين فهمه ومن ثم كانت السنة هي المصدر الثاني من مصادر الحضارة الإسلامية، وما قدمته من نظم فقد كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين وقاضيهم وقائدهم ومعلمهم ومربيهم، وفوق هذا وذاك كان نبيهم الذى بلغهم رسالة ربه كما أوحى بها إليه.

٢- والسنة الشريفة توضح للإنسان المسلم والأمة الإسلامية جميعاً دين الإسلام، وتعمق فهم المسلمين للأصول والأسس التي وضعها الإسلام وجاء بها القرآن الكريم، لقد علم النبي ﷺ المسلمين أمور دينهم وأمور دنياهم، وكانت أقواله وأفعاله تطبيقاً عملياً للإسلام كما أراد لهم أن يتعلموه ويطبقوه، وكان يربي جيلاً وينشئ أمة لتعى الإسلام وتعمل به وتحافظ عليه. والرسول ﷺ كما عاش بين المسلمين كان قدوة وعلى هديه ووفق سنته سار المسلمون الأولون وتبعهم التابعون والمسلمون من بعدهم، كان قدوة في حياته الخاصة والعامة فكان في بيته الأب الرحيم والزوج المخلص، علم أهل بيته آداب الدنيا وطبقوها كما كان ينبغي لهم أن يفعلوا، وكانت أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن يسهمن في تعليم المسلمين، وعلى يدي عائشة رضى الله عنها تعلم رواة الحديث في المدينة وعلموه من بعد ذلك للأجيال من أبناء الأمة الإسلامية، لقد كانت أم المؤمنين رضى الله عنها المرجع الأول في الحديث والسنة وعنها أخذ المسلمون نصف دينهم، وفيها قال الإمام الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي ﷺ وعلم جميع الناس لكان علم عائشة أفضل، وتقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: إن عائشة رضى الله عنها تركت أعمق الأثر في الحياة الفقهية والسياسية للمسلمين[2].

---

(١) انظر: محمد علي كرد، الإسلام والحضارة العربية، ج٢، ص٥.

(٢) عائشة عبد الرحمن، نساء النبي ﷺ، ص١٠٣.

وكان سلوكه ﷺ بين أصحابه وأهله تعليماً للمسلمين، فقد كان مسجده في المدينة المدرسة التي يتعلم فيها المسلمون أصول الدين وأسس الحكم والسياسة ونظريات المعاملات والاقتصاد والحرب وقواعده واستراتيجيته كما تعلموا فنون السلم والمسالمة.

وقد نص القرآن الكريم على ضرورة اتباع الرسول ﷺ وطاعته: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[1]، ومن هنا كانت أهمية السنة النبوية الشريفة بالنسبة للمسلمين، وبالنسبة لدورها ازدهار الحضارة الإسلامية وإلى الرسول ﷺ يلجأ المسلمون فيما ينشب بينهم من خلاف: ﴿**فَلاَوَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾[3].

وكما يعتبر الفقهاء السنة النبوية الشريفة مصدراً أصلياً من مصادر التشريع فإن المؤرخين يتخذونها مصدراً أولياً من مصادر الحضارة الإسلامية، فقد أقام رسول الله ﷺ الدولة في المدينة المنورة واضعاً اللبنات الأولى لنظم الحكم والإدارة والاقتصاد والحرب في الإسلام، فقد انتقل رسول الله ﷺ إلى المدينة عام ١ هـ/٦٢٢ ليؤسس الدولة الإسلامية، وليتخذ منها عاصمة للدولة الناشئه في شبه الجزيرة العربية، ومن هنا كانت مدينة رسول الله ﷺ المركز الأول للحضارة الإسلامية، فيه ولدت ونمت واكتملت وصقلت ثم خرجت مع المسلمين الفاتحين لتبث نورها في الآفاق، ولتؤثر في كل مكان وصلت إليه بمفاهيمها وقيمها الجديدة.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧.
(٢) سورة النساء: الآية ٦٥.
(٣) سورة النساء: الآية ٥٩.

ومدينة رسول الله ﷺ كانت العاصمة التي شهدت مولد الأمة الإسلامية التى خرجت مجاهدة في سبيل الله، حاملة راية الإسلام وبين يديها الحضارة الإسلامية مطبقة في سلوك الأمة وآدابها ومعاملاتها وسلمها وحربها، وفيها تعلم المسلمون من النبي ﷺ وما علموه للأجيال من بعدهم، فقد تعلموا دقائق العقيدة وتفصيلاتها، كما تعلموا أصول الحكم والسياسة، وكان على الجيل الأول من المسلمين مسؤولية إيصال هذه الرسالة والحضارة التي إخضر عودها في المدينة، وقد أوفوا وصدقوا فيما ائتمنوا عليه، وقد أثبت هذا الجيل من الأمة الإسلامية قوة عود الدين الجديد الذي استطاع أن يفرض سيادته الحضارية فكرياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً في حركة مد جارفة انحسرت أمامها كل المفاهيم والقيم القديمة، وعلى أكتاف هؤلاء القادة قراء ومفسرين ولغويين وفقهاء ومجاهدين ارتفعت كلمة الإسلام بهم، ومنهم استمدت الدولة عناصرها من القوة والشباب والحيوية.

ولما كانت الحضارة الإسلامية ترتبط بالرخاء والاستقرار؛ فقد نتج عن ذلك استقرار المسلمين في المدينة أن تألف مجتمع جديد متناسق أذاب الرسول ﷺ كل خلافاته، وعاش المهاجرون والأنصار يعملون معا ليصلوا بالحضارة الإسلامية في مهدها الأول إلى مستوى من التفوق سجله المؤرخون والكتاب إن الحضارة الإسلامية بمظهرها الجديد التي عرفها العالم لأول مرة استطاعت في ظل الإسلام أن تثبت قدرة أبناء الأمة الإسلامية على الابتكار والإبداع والاستمرارية، وقد سار الخلفاء الراشدون على النهج الذي رسمه رسول الله ﷺ يطبقون القوانين والأحكام التي احتواها كتاب الله، ويحيون سنة رسول الله ﷺ، ويعمقون المفاهيم الإسلامية ويواجهون مطالب الأمة، ومع انتشار الإسلام مع حركة الفتح الإسلامي دخلت عناصر بشرية جديدة أسهمت في إثراء الحضارة الإسلامية وساعدت في تطويرها، وسواء كانت هذه العناصر مشرقية أو مغربية إغريقية أو أسيوية؛ فقد ظلت الحضارة الإسلامية حافظة لأصولها الأولى التي ميزتها عن غيرها من حضارات الدنيا،

ومع أن الحضارة الإسلامية تنفرد بين الحضارات الإنسانية باستقاء أصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؛ فهى تتفق معها في كثير من المصادر المتفق عليها بين المؤرخين كأصول لدراسة الحضارة بشكل عام.

٢- المصادر المكتوبة:

المصادر المكتوبة كثيرة ومتنوعة منها الكتب المدونة والمخطوطات والوثائق الرسمية التي تحويهاالأرشيفات الرسمية والرسائل المتبادلة بين الأفراد والحكام والخلفاء والاتفاقات والمعاهدات ومنها أيضاً أوراق البردي.

وتعد المصادر المكتوبة وخاصة الوثائق والاتفاقات وأوراق البردي من الأصول الأولى لدراسة التاريخ الإداري والاقتصادي للدولة الاسلامية على امتداد أطرافها، إلا أن بعض هذه المصادر مع الأسف قليلة ونادرة وضاع معظمها وفقد خلال الفترات التاريخية المتعاقبة وخاصة في أطراف الدولة الإسلامية، كما أن معظم تلك الوثائق تعرض للحرق أو الإتلاف حين تعرضت بعض دواوين الدولة الإسلامية للحريق؛ فقد تعرض ديوان الكوفة وديوان الفسطاط للحريق مما أدى إلى ضياع ما كان بها من وثائق هامة [1].

وتتزايد أهمية الوثائق البردية لما تحتويه من معلومات هامة تختص بالنظم الإدارية والاجتماعية في الدولة الإسلامية بصفة عامة والنظم الإدارية والمالية والاجتماعية في مصر بصفة خاصة.

وقد اهتم المستشرقون بشكل خاص بالبرديات العربية كمصدر من مصادر دراسة النظم الإسلامية وأولوها عناية فائقة ومن أهمها جروهمان Gro الذي صنف البرديات العربية بدار الكتاب، وظهر البرديات يجيب على التساؤل الذي ظل مطروحاً بين المستشرقين عن وجود أرشيفيات في الدولة الإسلامية، كما أن هذه البرديات وخاصة ما وجد منها في مصر تقدم معلومات تفيد في كتابة تاريخ المجتمع الإسلامي؛ خاصة وأن المعلومات الخاصة بالطبقات الدنيا في المجتمع قليلة نادرة بالمقارنة مع ما يوجد من

(١) د. عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب.

معلومات عن الحكام والأمراء والقواد والعلماء الذين يمثلون الطبقات العليا في نفس المجتمع.

والبرديات العربية كثيرة ومنتشرة في مكتبات الدنيا، وما هو جدير بالإشارة أن أكبر المجموعات البردية العربية توجد في مكتبات النمسا التي تحتفظ وحدها بما يقدر بعشرة آلاف بردية عربية [1].

وتمثل المصادر المكتوبة فكر المسلمين في عصوره المختلفة، فلم يتركوا مجالاً من مجالات العلم إلا وطرقوه وألفوا فيه وقدموا دراسات وافيه أصلية تعتبر الأصول الأولى للعلوم والمعرفة الإنسانية، كتب المسلمون في الفقه والتفسير واللغة والتصوف، كما ألفوا في العلوم والكيمياء والطب وكتبوا في الموسيقي والغناء والشعر والنثر والجغرافيا، وجادلوا وردوا وعارضوا وردوا الشبهات عن الإسلام، وأسسوا علم الاجتماع كما سجلوا الأحداث ودونوا الأخبار، وكان علم التاريخ والكتب التاريخية كثيرة تعتبر أم المكتبات وتنقسم إلى فروع عديدة منها الكتب الموسوعية ومنها الكتب المتخصصة ومنها ما يعالج النظم والقوانين، وأهم التفريعات التي يضمها التاريخ كما كتبه المسلمون، التاريخ العام ويمثله في المؤرخين المسلمين بشكل عام الطبري وابن الأثير، والتاريخ المحلي وكتب فيه كثيرون من بينهم ابن الفلانسي وابن الشحنة وابن القديم، أما كتب النظم والقوانين فمن أشهرهم كتابات إبن سلام وأبي جعفر والماورودي والأسعد إبن محاني والقلقشندي.

والكتابة التاريخية تعتبر أم الكتابات؛ ذلك أن الدارس يستطيع الحصول على معلومات قيمة وأساسية من مطالعتها والإفادة منها، وقد أكد كثيرون من الكتاب على أهمية الكتابة التاريخية للعلماء فيقول القلقشندي: أعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف على اختلاف فنونه ما بين مختصر ومبسوط ومقتصر على فن ومستوعب لفنون، وفي خلال تلك المصنفات نوادر غريبة ولطائف عجيبة لا يحصل الوقوف عليها إلا بعد استيعابها بالمطالعة، كما لا يقع الظفر بالجوهرة في المعدن إلا بعد عمل

(١) د. عبد المنعم ماجد الزين علي، مقدمة دراسة التاريخ الإسلامي، ص٤٥.

كثير يحصل في خلالها بغيته، فإذا التقطت الجواهر في المعدن سهل تناولها لمريدها[1]. وللمسلمين أعمال هامة في السير والتراجم اشتهر منها كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد ووفيات الأعيان لابن خلكان، وكذلك كتابات القوطي والكتبي والصفدي وغيرهم، كما كانت المعاجم الجغرافية والمعاجم الأدبية وتقاويم البلدان وكتب الرحلات دائماً مصادر أساسية في دراسة الحضارة الإسلامية وأنظمتها.

ومن المصادر الأساسية أيضاً في دراسة الحضارة الإسلامية ما سجله الرحالة المسلمون من مشاهدات ومعلومات، جمعوها خلال أسفارهم وترحالهم في بلاد الإسلام ودار الحرب ما يقدم مادة علمية قيمة تفيد في دراسة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

إن ما كتب البلاذري والاصطغري والمقدسي وابن خرذابة والبلخي وابن حوقل والمسعودي واليعقوبي وابن بطوطة وابن جبير؛ صوراً صادقة ومختلفة الأبعاد والانطباعات عن أحوال الناس وطرق معيشتهم ونظمهم السياسية وأوضاعهم الاجتماعية وأحوالهم الاقتصادية؛ كلها يكمل بعضها بعضاً، فيذكر اليعقوبي أنه طاف الممالك الإسلامية كلها؛ فنزل أرمينية وورد خراسان ومصر والمغرب وسافر إلى الهند، وكلما لقى رجلاً سأله عن وطنه ومصره وعن زرعه ما هو وساكنيه من هم عرب أو عجم وعن شرب أهله ولباسهم وديانـاتهم ومقالاتهم؛ ثم يثبت ذلك ويدونه، وهذا يوضح حرص الرحالة والجغرافيين المسلمين في تدوين الأخبار وتسجيل الأحداث.

ولكتب الأدب والشعر مكانة هامة كمصدر من مصادر دراسة حضارة الأمم، فإن آداب الأمم كما يصورها شعراً نبض شعرائها ونخراً أحاسيس كتابها؛ تحوى سجلاً هائلاً للمعلومات التي تفيد الدارسين، والأدب العربي ثرى غاية الثراء بإنتاج أدبائه عبر كل العصور مما يتيح للدارسين مادة علمية وفيرة تثري أبحاثهم غاية الثراء في حياة الأمم وتاريخها وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٤١٢.

لقد سجل المسلمون كما فعل غيرهم من الأمم تخليداً للأحداث الهامة في حياتهم وتغنوا شعراً بانتصاراتهم، من ذلك كان فتوحات الشام على يدي صلاح الدين الأيوبي وجيوش مصر الذي ألهب قريحه الشعراء والأدباء المسلمين خلدوا هذا النصر شعراً تزدان به كتب المعاصرين لتلك الفترة التاريخية.

٣- المصادر الأثرية:

تشمل المصادر الأثرية كل ما ترك المسلمون من آثار تتمثل في مساجدهم ومكتباتهم وخاناتهم وربطهم ومدنهم وأسوارها وقلاعها والعملة على اختلاف أنواعها والطراز والأسلحة بكافة أشكالها ومختلف أنواعها، إلى غير ذلك مما تحفل به متاحف الدنيا من آثار ومخلفات تركتها يد الفنان المسلم.

وتعتبر الآثار الإسلامية من المصادر المعينة لدراسة الحضارة الإسلامية، وللمسلمين آثار مبنية تنتشر في قارات الدنيا فمن الأندلس غرباً إلى شبة القارة الهندية شرقاً تقف الآثار الإسلامية شامخة تقدم الدليل الحي على سمو حضارة الإسلام وارتقائها. والمسجد هو نقطة البدء في دراسة الآثار الإسلامية فهو المصدر الذي استقت منه العمارة الإسلامية أصولها، ومن المسجد امتد العمران لتقام العواصم الإسلامية بمنشآتها ومؤسساتها المختلفة، وتعكس العمارة الإسلامية مستويات حضارية مختلفة تعبر عن العصور التي تمثلها.

والمساجد الإسلامية هي المراكز الحضارية الأولى التي انبعثت منها إشعاعات الدين وإشعاعات الحضارة؛ فحول المسجد الأول في مصر أقيمت العاصمة الإسلامية الأولى الفسطاط، والمساجد تحولت مدن كبيرة مثل الأسكندرية ودمشق إلى مدن إسلامية، وفي المسجد كان المسلمون يناقشون أمورهم الدينية والدنيوية، ومع المسجد أقيمت المدارس التي كان لها دور هام في التعليم الإسلامي، وهي تمثل مصدراً من المصادر الهامة لدراسة الحضارة الإسلامية، وجدير بالإشارة أن أوروبا أقامت جامعاتها ومعاهدها العلمية على غرار المدرسة في الإسلام.

ومن الآثار الهامة لدراسة الحضارة الإسلامية تتصدر المدن التي شيدها المسلمون بطرزها المعمارية المختلفة سواء ما أقيم منها أصلا كمدينة إسلامية أو ما تحول منها؛ بإقامة المساجد فيها إلى مدن إسلامية بعد الفتح، وذلك أن المدن بأسوارها وقلاعها ومكتباتها وأسواقها وحماماتها وربطها وخاناتها وفنادقها وبيمارستاناتها ووكالاتها وحدائقها تعين على فهم المستويات الحضارية المختلفة والمرتبطة بالعصور التاريخية المتعاقبة تقدماً وانحطاطاً تطوراً أو ركوداً، فالقاهرة تمثل الطرز المعمارية الفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية، والأزهر الذي أسسه الفاطميون لمسجد ثم تحول إلى مدرسة ومركز الفكر الشيعي وجامعة للعلوم والآداب يؤرخ لمصر ويحكي قصة تطورها الحضاري، فقد كان ولا يزال شاهد عيان للأحداث التي تعيشها مصر فقد تابع أحداث تاريخها وعصور ازدهارها وأوقات محنها وأزماتها وعاصر صمودها وكفاحها وانتصاراتها وأعيادها.

والمنشآت المعمارية كلها تمثلت في القلاع أو في الأسوار أو في الأسواق أو غيرها؛ تقدم معيناً لا ينضب من المعلومات والبيانات الأدلة التي تقدمها نقوشها وكتاباتها مما لا يتستغني عنه دارس لتاريخ الحضارة والنظم الإسلامية.

والعملة والمسكوكات والنقود والمصادر الأثرية الأصلية في دراسة نظم وحضارة الإسلام، وقد زادت أهميتها حتى أصبحت علماً بذاته علم النيمات Numismatic، والعملة تعكس المستوى الاقتصادي للدولة التي أصدرتها، وللعصر الذي تمثله، كما أن النقوش المضروبة عليها تتضمن ألقاب الملوك والخلفاء والسلاطين وتاريخ إصدارها، وهي بهذا تقدم سجلاً لحكم أولئك الحكام، وفي بعض الأحيان تعكس المذهب الديني الذي يمثله الحاكم[1].

وتعين السكة على تصحيح بعض المعلومات أو تأكيد الصحيح منها، كما تبين مدى التوسع الاقتصادي والانتشار التجاري في عصر من العصور، فحين اكتشفت عملة إسلامية في شبه الجزيرة العربية الاسكندنافية أكد الباحثون بناء على ذلك الكشف وصول تجارة المسلمين في العصور الوسطي إلى تلك البقاع.

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون المسلمون، ص١٥٧.

عرف المسلمون النقود والعملة منذ عصر الخلفاء الراشدين فيذكر المقريزي أن الفاروق ﷺ ضرب الدراهم على نقش الكرورية[1].

وكان العصر الأموى هو العصر الذي شهد تعريب الدواوين الإسلامية، وذلك على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي ضرب عملة عربية كانت من الفضة الخالصة وذلك عام ٧٧هـ - ٦٩٦هـ[2].

وفي هذا يذكر القلقشندي أن الناس كانوا قبل ذلك يتعاملون بدراهم الروم والفرس، ولما ضربها عبد الملك كتب إلى الحجاج بالعراق بإقامة رسم ذلك الضرب فضرب عليها الدراهم ونقش عليها: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾[3].

فسميت بالدراهم الأحدية وكرهها الناس لنقش القرآن عليها؛ مع أنه قد يحملها المحدث فسميت بالدراهم المكروهة، وإصدار العملة الإسلامية يوضح مدى حرص الدولة الإسلامية على استغلال اقتصادها، وقد اهتم المسلمون بنقاء العملة فحرص أحمد بن طولون على خلوص الذهب بل كان على ما يذكر القلقشندي أول من شدد في خلوص الذهب، كما حرص المسلمون على دقة عيار العملة، وكان أول من شدد في العيار يوسف بن إبراهيم؛ وكان ينزل أشد أنواع العقاب بمن ينتقص الوزن في الدراهم المضروبة، وتختلف عبرة الدنانير من عصر إلى عصر، كما أنها تتأثر بالأوضاع الاقتصادية للدولة؛ فيقول القلقشندي إن مصر شهدت في عصر السلطان برقوق نوعين من المسكوكات الأول ما كان يضرب بالديار المصرية حيث دار الضرب بالأسكندرية، والتي كان يضرب بها الدنانير والفلوس، والثاني يأتي إليها من الممالك ويقصد بها الدوكات، وهذا الاصطلاح في الحقيقة لا يطلق إلا على العملة المضروبة في البندقية[1]، وذكر أن الذهب كان يتعامل به والعبرة في وزن الدنانير، ووزنها بالمثاقيل وضابطها أن كل سبعة مثاقيل

---

(١) المقريزي، إغاثة الأمة، ط٥.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ص٤٢٥، ج١.
(٣) سورة الإخلاص.
(1) المصدر نفسه، ج٣، ص٤٣٧.

زنتها عشرة دراهم، والمثقال معتبر بأربعة وعشرين قيراطاً وقدرها بثنتين وسبعين حبة شعير من الشعير الوسط باتفاق العلماء خلافاً لابن حزم، فإنه قدرها بأربع وثمانين حبة على أن المثقال لم يتغير وزنه في جاهلية ولا إسلام[2].

ويمكن للدارس أن يستخلص من دراسة العملة والمسكوكات استقلال الإقليم أو لتبعيته، كما يستطيع أن يرسم الملامح الاقتصادية للعصر الذي تمثله هذه العملة أو تلك، يخبرنا الفلفشندي أن نائب السلطنة بالأسكندرية في عهد الدولة الأشرقية ضرب دنانير زنة كل دينار منها مثقال على أحد الوجهين منه (محمد صلى الله) وعلى الوجه الآخر ضرب الأسكندرية في الدولة الأشرقية شعبان بن حسين عز نصرة ثم أمسك في ذلك فلم تكثر هذه الدنانير.

وفي عهد السلطان فرج بن برقوق ضرب الأمير يلبوا السالمي استدار العالية في الدولة الناصرية دنانير زنة كل واحد منها مثقال في وسط سكنه دائرة مكتوب عليها فرج.

كما ضربت في عهدة أيضاً دنانير على زنة الدنانير الأخرنتيه في الوجهين لا إله الا الله، وفي الأخرى اسم السلطان، وعرفت هذه الدنانير بالناصرية، وكثر التعامل بها ومن ثم انتشر تداولها، ولتقي الدين العزيزي آراء كثيرة حول العملة التي يذكر مدى جودتها في عصور الرخاء الاقتصادي ومستوى رداءتها في عصور المحنة والاضطراب، وهو ما يوضح أن النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة من التداول، وكانت الفلوس نقداً رديئاً بالنسبة للدينار أو الدرهم فطردتها من السوق.

وقد أدرك المقريزي الدراهم الكمالية ليتعامل بها الناس، وكانت ثلثاها من الفضة والثلث من النحاس؛ يضاف على المائة من الفضة الخالصة خمسون درهماً من النحاس[1].

---

(2) القلقشندي، صبح الأعشي، ج٣، ص٤٣٦ – المقريزي، إغاثة الأمة، ص٥٠.

(١) المصدر نفسه، ص٦٦.

ومن المفيد أن يشير إلى الدينار الجيشي الذي يستعله أهل الديوان في الجيش أو ديوان الجيش في عبارة الإقطاعات، وذلك بأن يجعلوا لكل قطاع عبارة دنانير، وقد كان دينار الأجناد من الترك والأكراد والتركمان دينار كامل، والكنانية والعسافلة ومن يجرى مجراهم نصف دينار، والعربان دينارهم ثمن دينار، وفي عرف النحاس ثلاثة عشر درهماً ونصف وهو على أية حال مسمي لا حقيقة له مثلها مثل الدراهم السوداء[٢].

واهتم كثير من المؤرخين والكتاب بالمسكوكات والعملة، من أهمهم أبي يوسف صاحب الخراج وابن سلام صاحب كتاب الأموال والمارودي في الأحكام السلطانية والقلقشندي في موسوعته الكبرى صبح الأعشى والمقريزي في رسالته المتخصصة (إغاثة الأمة بكشف الغمة) وغيرهم، وهذه المؤلفات تؤكد أهمية المسكوكات بكافة أنواعها وأقسامها وعلى مختلف العصور التي أصدرت فيها، وعلى أنها تسهم بدور هام في دراسة النظم الاقتصادية الإسلامية؛ بالإضافة إلى أنها سجلات تؤرخ للأحداث العامة وأحوال المجتمع.

ويعتبر الطراز من المصادر التي تفيد في دراسة الحضارة الإسلامية، ويعني نقش اسم السلطان على ما ينسخ ويرقم من الكسوة، والطرز المختلفة المتخذه من الحرير والذهب بلون مخالف للون القماش، وذلك لتصير الثياب والطرز السلطانية مميزة من غيرها، ويذكر القلقشندي أن ذلك تنوه بقدر لابسها من السلطان أو من يشرفه لبسها عند ولاية وظيفة أو إنعام، وكان للطراز دار خاصة تعرف بدار الطراز بالأسكندرية.

ومن أنواع الطراز الفاشية والمظلة والرقبة والأعلام والخيام والفساطيط، أما الفاشية فهي غاشية السرج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها من الذهب تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب والحفلات، وأما المظلة فهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طير مطلية بالذهب، وهي من بقايا الدولة الفاطمية، وأما الرقبة فهي

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٣٨-٤٣٩.

تجعل على رقبة الفرس وهي من أطلس أصفر ومحلاة بالذهب، وأما الأعلام فهي الرايات التي تحمل ألقاب السلطان واسمه ومنها العصابة والجالبش والسنجاق، ومما يذكر أن أول من حمل السنجق على رأسه من الملوك غازي بن زنكي أخو السلطان نورالدين محمود، كذلك كانت الخيام والفساطيط تصنع من القطن الشامي الملون بالأبيض والأحمر والأزرق وغيرها، وكانت الخيام تنوب مناب القصور في الإقامة، ويفيد الدارسون من دراسة ما يصل إليهم من[1] الطراز؛ وذلك باستخدام النقوش والكتابات وتفسير العلامات التي يحملها مما يلقي الأضواء على العصر الذي تنتمي إليه، هذه الدراسة عن أصول الحضارة الإسلامية جاءت في كتاب (تاريخ النظم والحضارة الاسلامية)[2].

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٧-٩.
(٢) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، د. فتحية النبراوي، ط٤، جدة، الدار السعودية، ١٩٧٨م، ص١٩-٣٣.